نظرة نقدية

بقلم فؤاد افرام البستاني

طالما تاق ادباؤنا الى معجم عصري واسع ، صحيح ، يصلح ما شاب المعاجم المتقدمة من فساد ، ويرتب ما شوّشها من اضطراب ، ويحذف ما تراكم فيها من حشو وتكرار . فكان لهم « البستان »[1] . ظهر في مجلدين كبيرين ، مطبوعاً طبعاً متقناً على ورق صقيل ، بحرف واضح هو اضخم في المادة المشروحة منه في الشرح. فأهلت به الاوساط العلمية ، واشادت بذكر صاحبه المرحوم الشيخ عبدالله البستاني ، من انقادت اليه اللغة في عصرنا باوابدها وشواردها ، فكان اجدر من يؤلف فيها . على انه لم يدّع ان « الكتاب حصين عن انظار الناقدين ، او بعيد عن مرامي المزيّفين »[2]، وليس من عاقل يدّعي الكمال للآثار البشرية. فلا غرابة في ان يرى فيه المطالع المدقق اهمالاً او زيادةً او شروحاً يخالف فيها سائر المعاجم. فان من عرف آراء الشيخ اللغوية ، وطريقته في استقصاء معاني الالفاظ، وما كان يحتي به اسفار القوم آخذاً عليها كثيراً من غلط النسخ والتخريج ، ادرك انه أهمل ما أهمل لسبب وجيه ، وزاد ما زاد لغاية قوية ، وخالف من خالف عن بحث واقتناع. وهذا ما كنا ننتظر ان يبيّنه ، وما كان عازماً ان

---

١) البستان : معجم لغوي، تأليف الشيخ عبدالله البستاني اللبناني – ٢٧٨٤ صفحة كبيرة – المطبعة الاميركانية ، بيروت – ظهر المجلد الاول سنة ١٩٢٧ (المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ١٥١) والثاني سنة ١٩٣٠ ، بعد وفاة المؤلف بعشرة ايام . – ثمن كل مجلّد جنيه مصري واحد.

٢) مقدّمة الناشر ، ص ٣ من المجلّد الثاني.

يوضحه في تلك المقدمة التي ارجأ كتابتها الى ما بعد انتهاء الطبع ، والتي حالت المنيّة بينه وبين تدبيجها.

بيدَ ان من الحقّ والواجب ان ندقق النظر في « البستان » ، فنرى هل امتاز عمّا تقدّمه من اسفار اللغة ، وهل من مبرّر لاجماع الادباء على تقريظه[1] ، والحضّ على اقتنائه ؟

لا يخفى ان المعاجم القديمة على اختلاف عقليـة واضعيها ، وتباين عصور وضعها ، تشترك كلها في شوائب عـدة ذكر منها ستًّا حضرة الخوري بطرس البستاني ، كاتب مقدمة البستان ،[2] وهي: سوء الاختيار للالفاظ وعدم التحرّز من الحوشية والوحشية ؛ عدم التنسيق ؛ التعريف الدوري ؛ التقصير في تعدية الافعال القاصرة ؛ الخلط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ؛ اهمـال الالفاظ المولّدة ؛ ونضيف اليها شائبة سابعة وهي القصور في التحديد ، ولا سيما في ما خصّ اسماء النبات والحيوان.

اما البستان فمن انعم النظر فيه، وقابل بينه وبين ما تقدم من دواوين اللغة، تأكد ان صاحبه تجنّب الشائبة الاولى والثانية والرابعة والخامسة ، وشيئاً من سائر الشوائب . فقد تحاشى عن الالفاظ الحوشية والوحشية ، وعن كثير غيرها مما يُشتمّ منه فساد الذوق ؛ ولم يضرّ هذا في سعة القاموس ، بل انك قد تجد فيـه كثيرًا من المفردات المأنوسة التي لم تذكرها امّات المعاجم. وقد اجتهد كل الاجتهاد في التبويب والتنسيق فحـذف الحشو والتكرار ورتب المواد والمعاني، حتى غدا ذلك من اجلى مزايا الكتاب، ومن ادعى الاسباب الى ترغيب الطالب في تقليب صفحاته. وقد اهتمّ كذلك بتعدية الافعال القاصرة ؛ وبالتمييز

---

١) اثار هذا التقريظ حفيظة بعض من لا يروقهم ان يُذكر غيرهم بلسان خير ؛ فقاموا، بعد وفاة المؤلف ، ينهون على « البستان » اغلاطه ، ويعدّدون هفواته ، بابجة اقل ما فيها انها تنمّ عن نيّة سيّئة ، وادّعاء مفرط ، وحسد يأكل صاحبه — والحسد مفسدة العلم والعلماء! — فيدفع به الى الحطّ من مناظريه والعمل على تقويض شهرتهم العالية . ومن احتاج الى خفض العلماء ودكّ درجاتهم، ليظهر رفعة شأنه ، كان من اقزام العلم ، قصير الباع ، ضئيلاً . .

٢) يرى المطالع ملخّص الشوائب الستّ في آخر هذا الدرس.

بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الاصلي والفرعي ، سائرًا في ترتيب شروحه على هذا الاسلوب في الغالب.

اما التعريف الدوري فقد خطا خطوةً واسعة في سبيل تجنبه ، فتخلص منه الا ما كان عن سهو. واما الالفاظ المولّدة فقد اهملها بالاجمال ، لا عن سهو او قصور ، بل عمدًا ؛ لان المعجم في عرفه لغوي محض ، فلم يشأ ان يدخل فيه الا الالفاظ العربية الصريحة الدالّة على المعنى الذي عبّر بها عنه العرب الخلصاء. حتى انه أهمل الاوضاع العلمية والفنية القديمة التي امتاز بها « محيط المحيط » ، فكان البستان ، من هذه الناحية ، اضيق من معجم المعلّم بطرس. وهو تعصب للغة يضيّق عليها باب النموّ ، وعلينا باب التقدّم في الكتابات العلمية . ولكنّ له وجهاً من العذر ، خصوصاً اذا ادركنا غاية المؤلف من الحرص على سلامة اللغة ، واذا اعتبرنا ان مثل تلك الاصطلاحات لا يمكن اقرارها الا بسعي لجنة من العلماء ، ولا تثبيتها الا بموافقة مجمع علمي رسمي ، وهو ما لا تزال اليه مفتقرين. ولقد نشط ارباب المطبعة الاميركانية لسدّ هذه الثلمة في البستان وفي غيره من المعاجم ، فعقدوا نيّاتهم على ان يضيفوا اليه ملحقاً يتضمن جميع الالفاظ والمصطلحات الجديدة من مولّدة ومستحدثة ومعرّبة ومنحوتة[1].

واما القصور في التعريف ، وهو الشائبة السابعة ، فالحق يقال ان البستان لم يخلُ منه تماماً . على ان له فضلًا جزيلًا في انه اتمّ الكثير من التعريفات الناقصة قبله ، يتضح ذلك لمن يقابل بينه وبين « لسان العرب » مثلًا ، بل لمن يقابل بينه وبين القواميس الحديثة ، وكلها تدعي على صواب بانها اتمت شيئاً من تلك التعريفات .

وعلى الجملة نرى ان « البستان » الذي في حينه فوضع حدًا للفوضى الناشئة في اللغة ، اذ غربل مفرداتها فرمى بالدخيل والحوشي ، وحصر الفصيح منها بين دفتيه ضابطاً اياه بالحركات والاوزان[2] ، فاستحق ثقة القوم ، وثناء العلماء الاعلام.

* * *

١) وقد اطلعنا على باب الهمزة من هذا الملحق فألفيناه يبشّر بالنجاح.

٢) قد وقع بعض الخلل في هذا الضبط بسبب ما تراكم من الاغلاط الطبعية التي لم يكن

هذا ولا يسعنا الا ان نشير الى تلك المقدمة النفيسة التي قدمها على الجزء الثاني ، حضرة الاب اللغوي المشهور الخوري بطرس البستاني ، نسيب المؤلف وتلميذه. فاودعها ما شاء علمه من آراء ناضجة ، ونظرات دقيقة جديدة في اصل اللغات وطبقاتها عموماً ، وما امتازت به اللغة العربية خصوصاً ، وتعليل الشذوذ فيها ، والقول في ان الاعراب الجاهليين ليسوا في عصمة من الخطأ ، وهو من اطرف ابحاث المقدّمة . ثم اشار الى ما انزل البصريون والكوفيون من النوازل باللغة ، والى فضل قريش عليها ؛ والى انها لم تنتهِ الينا برمّتها ، وهنا تكلم عما ضاع من الشعر الجاهلي وعمّن أُخذت اللغة ، وهل كل ما نقله اللغويون خالٍ من الفساد والنحل. ووصل الى المعاجم فذكر شيئاً عن اشهرها ، وعن واضعيها وزمن وضعها ، ثم تبسّط في شوائبها ، وهو البحث النفيس الذي نقلناه في آخر هذا المقال . وانتقل الى مناسبة الالفاظ للمعاني فجال في ما راعاه العرب من الخفة في تركيب الفاظهم ، وجرّه ذلك الى البحث في طبيعة الحروف وذكر القابها بحسب مخارجها ، وما تحدثه شدّتها ورخاوتها من التفاوت في الالفاظ المتقاربة المعاني ، وانتهى الى خصائص الحروف ، وهو بحث عزيز عليه ، نشرنا له شيئاً فيه سابقاً (المشرق ٢٧[١٩٢٩] ٦٣٤). هذه بعض ابحاث تلك المقدّمة الجامعة ، وافضل ما نقول فيها انه لو كان اطلع عليها المرحوم الشيخ عبد الله لما كان انكرها ، بل لما كان تردّد دقيقة في توقيعها .

فنحن نستمطر الرحمة تكراراً على ضريح فقيدنا العزيز ، ونشكر لحضرة الخوري بطرس غيرته على اللغة ، كما اننا نشكر للمطبعة الاميركانية اهتمامها بابراز هذا الاثر النفيس الذي سيظلّ منتهى الابحاث اللغوية الى امدٍ بعيد .

يتمنى للمؤلف اصلاحها إبان مرضه . وان من دواعي الاسف ان يقع مثل ذلك في مثل هذا السفر الجليل . ولهذا فنحن نرغب الى من يقوم بادارة طبع الملحق المصري في ان لا يضنّوا بوقتهم على مراجعة مجلّدَي البستان ، وسرد لائحة بالاغلاط يردفونها بالملحق المذكور ؛ فتكون خدمتهم للغة مزدوجة ، وشكر ادبائها لهم مزدوجاً كذلك .